الوليد بن عبد الملك (96/6 هـ / 705 – 715 م)

التعريف بالوليد

هو الوليد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، أبو العباس الأموي وأمه ولادة بنت العباس بن حزن بن الحارث بن زهير العيسي ولد عام (٥٠) هـ/ ٦٧٠ م) وهو أكبر أولاد عبد الملك أولاه والده عناية خاصة، فكان يحثه على تعلم العربية وإتقانها بفعل أنه كان لجاناً لا يحسن النحو فجمع عبد الملك جماعة من النحاة عنده، فأقاموا سنة وقيل ستة أشهر فخرج يوم خرج أجهل مما كان.شب الوليد على الصلاح والتقوى والإكثار من تلاوة القرآن وكان يختمه كل ثلاث وقيل كل سبع ويقرأ في رمضان سبع عشرة ختمة) .

ولأه والده ولاية العهد بعد وفاة عمه عبد العزيز، وبويع له بالخلافة بدمشق في اليوم الذي توفي فيه والده، فلم يدخل منزله حتى صعد المنبر والقى خطبة بين فيها سياسته الداخلية القائمة على اللين لأهل الحق والفضل والشدة على العريب وإقامة شعائر الله، كما أوضح سياسته الخارجية القائمة على استمرار عمليات الفتح والتوسع . ثم نصح الناس باتباع الطاعة ولزوم الجماعة، ولما انتهى من خطبته قام الناس إليه وبايعوه .

الإصلاح الداخلي :

اتسم عهد الوليد بأنه عهد فتح ويسر ورخاء بعد أن استتب الأمن والنظام في الداخل، وأصلحت الإدارة وشؤون الحكم ووضعت القواعد السليمة للأجهزة الحكومية، فاستثمر الوليد ذلك وانصرف إلى الإصلاح الداخلي والتوسع في الخارج. ومما لا شك فيه أن الوليد كان ميالاً للعمارة، لذلك اهتم بإصلاح الطرق وتسهيل السيل، وقد حقق في هذا المضمار أكثر مما حققه سواء فكتب إلى عامله في المدينة عمر بن عبد العزيز بتسهيل الثنايا وحفر الآبار، كما كتب إلى سائر الولاة بذلك . إلا أن أهم إنجازاته الداخلية ما نفذه من توسيع الحرم النبوي والجامع الأموي ..

أما فيما يتعلق بالحرم النبوي فقد أمر عامله على المدينة عمر بن عبد العزيز بتوسيع بناء المسجد النبوي، وذلك بهدم بيوت أزواج النبي وإدخالها في المسجد وأن بيشتري الدور الواقعة حوله فيزيدها فيه ليتسع ويكون مالتي ذراع في مثلها، ومن أبى فليقوم داره قيمة عدل وتهدم ويدفع إليه ثمنها، وأرسل إليه العمال والبنائين من الشام . ونفذ عمر قرار الخليفة، فأدخل في المسجد جميع حجر أزواج النبي ولم يبق غير حجر عائشة الذي يحوي القبور الثلاثة وكان من رأي أهل المدينة ألا تدخل في المسجد مخافة أن يستقبلها بعض المسلمين في صلاتهم فيشبهونها بالكعبة. وهدى التفكير عمر أن يثلث جهتها الشمالية حتى تنتهي بزاوية بحيث لا يمكن استقبالها، فأضحى شكل

الحجرة مخمساً، ودخلت بذلك حجرة عائشة في المسجد . وبنى الوليد الجامع الأموي بين أعوام (٦٨٨ هـ / ٧٠٧ – ٧١٥ م) وكان أول من اختطه أبو عبيدة بن الجراح وقد تألق في بنائه حتى ذكر أنه أنفق على عمارته خراج دولته سبع سنين، وجيء بالصناع والفنانين من الهند وفارس والقسطنطينية ومصر والمغرب واستخدم في بنائه اثني عشر ألف عامل، فكان أفخم بناء في بلاد المسلمين لا يضارعه بناء غيره، كما اعتبر آية من آيات الفن العربي

وقد أعجب كل من المهدي والمأمون من الخلفاء العباسيين بهذا الطراز من البناء، فعندما دخل الخليفة العباسي المهدي مدينة دمشق في طريقه إلى بيت المقدس أعجب بمسجدها وقال لكاتبه : سبقنا بنو أمية بثلاث بهذا المسجد لا أعلم على وجه الأرض مثله، وبنبل الموالي، ويعمر بن عبد العزيز، لا يكون والله فينا مثله أبدا . ولما دخل الخليفة المأمون دمشق ونظر إلى جامعها وكان معه أخوه المعتصم وقاضيه يحيى بن أكثم ، قال : ما أعجب ما فيه فقال أخوه: هذه الأذهاب التي فيي، وقال يحيى الرخام وهذه العقد فقال المأمون: إني إنما أعجب من حسن بنيانه على غير مثال متقدم . وحسن الوليد مدينة دمشق وأوصل الماء إلى كل بيت من البيوت الكبيرة فيها عبر أقنية من نهر بردى.

سياسة الوليد الخارجية

أ- جبهة المشرق

فتح بلاد ما وراء النهر

ما وراء النهر، لفظ استخدمه المؤرخون والجغرافيون المسلمون للتعبير عن المنطقة المحصورة بين نهري جيحون في يخلجنوب وسيحون في الشمال وتقع هذه في الشمال الشرقي من حدود الدولة الفارسية القديمة وسكانها من العنصر التركي قامت في هذه المنطقة، المشار إليها عدة ممالك مستقلة، بعضها عن بعض

أهمها:

- مملكة طخارستان، وتقع على ضفتي نهر جيحون وعاصمتها مدينة بلخ)

مملكة الختل وقصبتها هليك، وهي أول إمارة وراء نهر جيحون – مملكة صغانيان وقصبتها صغانيان

مملكة الصغد وقصبتها سمر قند

- مملكة خوارزم وقصبتها الجرجانية . كان الوضع السياسي لهذه الممالك مزعزعاً بفعل النزاعات الدائمة التي كانت تنشب بينها مما شكل خطراً على المسلمين الذين تاخمت حدود بلادهم في خراسان حدود هذه الممالك، مما جعلهم يفكرون في وضع حد لحالة الفوضى في هذه البلاد يضمها إلى الدولة الإسلامية ونشر الإسلام فيها وإخضاعها للنظام قبل أن يستفحل خطرها). وبالرغم من النزاعات الداخلية فيها إلا أن شعوبها يمكن أن تتحالف إذا شعرت بوجود خطر خارجي عليها. كانت العمليات العسكرية في وسط آسيا على جانب كبير من الأهمية ونتم بنجاح في بلاد ما وراء النهر، حيث حقق القائد المسلم قتيبة بن مسلم الباهلي حاكم خراسان السيطرة الأموية على هذه البلاد وتمكن من إثبات جدارته بالإمارة والقيادة، بحيث اعتبر من أشهر وأنجح القادة العسكريين، وسانده حاكم قوي هوالحجاج بن يوسف الثقفي، وكانت أوضاع دولة الخلافة الأموية قد استقرت، فاجتمعت له شجاعة القائد، وعزم الوالي وتصميمه، وقوة الدولة واستقرارها (؟ كانت مهمة قتيبة على شيء من الصعوبة فبالإضافة إلى عمليات الفتح، كان عليه أن يتجنب سياسة يزيد بن المهلب التي أثارت العصبية القبلية، وأن يُنسي العرب خلافاتهم العصبية، بعد تنحية آل المهلب عن حاكمية خراسان ..بدأ قتيبة عملياته العسكرية اعتباراً من عام هـ ٧٠٥ م) فعبر نهر جيحون على رأس جيش كبير، وتمكن بعد سلسلة من الحملات العسكرية الناجحة من إنزال العقاب بجميع الذين انتفضوا على الحكم الإسلامي في عهد الحروب الأهلية وأعاد فتح إقليم طخارستان. وتعتبر هذه الخطوة ضرورية لتمهيد طريق التقدم إلى أقاليم أخرى، ثم عاد إلى مرو، واستخلف على الجند أخاه صالح بن مسلم ويبدو أن متاعب قتيبة مع أمراء هذا الإقليم لم تنته، خاصة نيزك، وهو أحد الأمراء الذين صالحوا القائد المسلم. لقد استغل نيزك هذا خروج الجيش الإسلامي من المنطقة، فنقض الصلح الذي أبرمه مع المسلمين وكون حلفاً أمراء طخارستان ضد الوجود الإسلامي، فاضطر قتيبة للعودة إلى طخارستان
- لإخضاعه، وتمكن من القضاء على الحلف الذي شكله ثم قبض عليه وقتله) . تقدم قتيبة بعد ذلك إلى إقليم بخاري فغزا بيكند في عام (٨٧ هـ/ ٧٠٦م) وفتحها صلحاً بعد حصار . ويبدو أن أهلها لم يكونوا صادقين في صلحهم فاغتنموا فرصة انهماك المسلمين بالفتوحات، وثاروا على الحكم الإسلامي وقتلوا الوالي، فاضطر قتيبة للعودة إلى المدينة وفتحها عنوة ثم عاد إلى مرو .
- استمرت حملات قتيبة على إقليم بخارى ثلاث سنوات، فكان يغزوه في الصيف ويعود في الشتاء إلى مرو، حتى تمكن أخيراً من فتحه، وثبت أقدام
- المسلمين في مدنه.

- استأنف قتيبة فتوحاته في حوض نهر جيحون، ففتح سمرقند صلحاً في عام
- (٩٠) هـ / ٧٠٩ م)، وهي أعظم المدائن في بلاد الصغد كما فتح مدن خوارزم صلحاً
- أيضاً في عام ٩٣ هـ (٧١٢)(م) وتوّج فتوحاته بإعادة فتح سمرقند، بعد أن نقض
- أهلها الصلح مع المسلمين، وتثبيت أقدام المسلمين فيها
- تكمن أهمية فتح سمر قند أنها ضمت مصنعاً للورق، وهي صناعة صينية نقلتها جماعة من الحرفيين الصينيين إلى هذه المدينة وحمل المسلمون هذه الصناعة إلى دمشق ثم إلى بغداد بعد ذلك في العصر العباسي، وإلى القاهرة وأفريقيا الشمالية
- وصقلية والأندلس، ومنها انتقلت إلى أوروبا في القرن الثاني عشر الميلادي. وانتقل قتيبة اعتباراً من عام ٩٤ هـ / ٧١٣ م)، إلى فتح مدن الشاش وفرغانة وكاشغر، وكانت تحت سيطرة الأتراك، فصادف مقاومة شرسة، واصطدم بهم أكثر من مرة حتى تمكن أخيراً من فتحها في عام (٩٥ هـ / ٧١٤ م) و أثناء جهاده في بلاد الترك جاءه نعي الحجاج ، فاغتم لموته، وأدرك الخليفة تأثير ذلك عليه ، فبعث إليه برسالة مواساة وتشجيع وثناء ، فأحدثت في نفسه أثر أطيباً.ويبدو أن قتيبة أراد تحقيق إنجاز إسلامي على الحدود مع الصين. فغادر مرو في طريقه إلى كاشغر وهي أدنى المدائن إلى الصين، ولما وصلها جاءه رسول من قبل الإمبراطور الصيني يدعوه إلى إرسال وفد إلى العاصمة الصينية للتباحث في أمر تقدم المسلمين. وفعلاً أرسل وقداً على رأسه هبيرة بن المشمرج، الذي أجرى مباحثات مع الجانب الصيني، أسفرت، على ما يبدو، إلى تجميد الفتوحات الإسلامية باتجاه الصين١١٠ / ٢٢٥ ى ذلك، لقد أدرك قتيبة أنه يواجه إمبراطورية قوية تتطلب منه استعدادات وتجهيزات لم تكن متوفرة، مع طول خط الإمدادات وصعوبة الاتصالات مع الإدارة المركزية في الوقت الذي أخذت فيه بعض المدن المفتوحة تنتفض على الحكم الإسلامي مما تطلب إعادة إخضاعها .والراجح أن هذه السفارة الإسلامية إلى البلاط الصيني كانت لأغراض سياسية وتجارية، إذ لم يكن المسلمون بغافلين عن أهمية التجارة بين الشرق والغرب. وجرت عدة محاولات منذ أيام قتيبة لضبط طرق التجارة في أواسط آسيا وحماية القوافل التجارية ويدل تعدد إرسال السفارات الإسلامية إلى الصين، بعد ذلك، على أهمية التجارة بين الشرق والغرب. من أجل ذلك، قنع قتيبة بنتائج من الفتوحات أدنى مما كانت قد خططت له القيادة المركزية. لكن المسلمين بذلوا جهوداً كبيرة ومتواصلة لجذب الناس إلى الدين الإسلامي، فتحول قسم منهم إلى الإسلام لكن بنسبة ضئيلة، في مستهل تاريخ الفتوحات، وغالباً ما كان إسلامهم تغطية لاستغلال فرصة أخرى يكشفون فيها القناع عن وجوههم المعادية
- فتح بلاد السند

- يقع إقليم السند في شمالي غربي شبه القارة الهندية وشرقي بلاد فارس الجنوبية. وتعتبر أحداث فتح هذا الإقليم شبيهة بأحداث فتوحات بلاد ما وراء النهر

- من عدة أوجه منها :
- وحدة الزمان: فقد بدأ المسلمون فتوحاتهم في هذا الإقليم عام (هـ / ٧٠٨م ، أي بعد أن بدأ قتيبة بن مسلم فتوحاته لبلاد ما وراء النهر بعامين اثنين، وإن كانت اهتماماتهم يفتح بلاد الهند ترجع إلى عصر الخلفاء الراشدين. وحدة العالم الإسلامي : لقد تمت فتوحات كل من إقليم ما وراء النهر وإقليم السند في ظل وحدة العالم الإسلامي التي حققها الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان. وحدة القيادة العامة: فالحجاج بن يوسف الثقفي هو الذي وجه الحملات
- العسكرية إلى كلا الإقليمين، فقد كلف قتيبة بن مسلم بفتح بلاد ما وراء النهر كما كلف
- صهره و ابن عمه محمد بن القاسم بفتح إقليم السند.
- وحدة الإعداد والتجهيز: في ظل القيادة العامة الواحدة". عهد الحجاج إلى ابن عمه محمد بن القاسم، الذي لم يكن قد تجاوز العشرين من العمر، بفتح إقليم السند، بعد أن أضحى يجاور الحدود الشرقية للدولة الإسلامية،
- وعينه أميراً عليه انتقل محمد هذا إلى مكران وتمركز فيها وجعلها نقطة الانطلاق وقاعدة الفتح، وخرج منها إلى الديبل على ساحل بحر الهند وفتح، وهو في طريقه إليها، عدة قلاع ولما وصل إليها حاصرها واقتحمها بعد ثلاثة أيام، فهرب منها عامل داهر ملك السند أعاد القائد المسلم تخطيط المدينة وأسكنها بأربعة آلاف من المسلمين، وجعلها قاعدة بحرية). وكان لفتح هذه المدينة تأثير كبير على الوضع الداخلي للمدن والقرى المجاورة، حيث هرع السكان يعرضون الصلح على المسلمين توجه محمد بن القاسم، بعد ذلك إلى البيرون، الواقعة على الضفة الغربية لنهر السند المعروف باسم مهران فصالحه أهلها كما صالحه سكان سربيدوس وسهبان فيسدوسان وهي مدن تقع على الضفة الشرقية للنهر ، ثم التقى داهر في مدينة مهران وانتصر عليه وقتله سيطر المسلمون بعد هذا النشاط الجهادي على كامل إقليم السند ثم زحفت جيوشهم نحو الشمال الشرقي حتى وصلوا إلى مدينة برهمناباد وقد لجأت إليها فلول جيش داهر بقيادة ابنه جاي سنك، فقاتلهم المسلمون وانتصروا عليهم وفتحوا المدينة عنوة). وفرَّ جاي سنك إلى الشمال وتحصن بالرور عاصمة السند، فلحقه المسلمون وحاصروا المدينة مدة أربعة أشهر قبل أن يفتحوها . وتابع القائد المسلم زحفه حتى قطع نهر بياس، أحد روافد نهر السند، ووصل إلى الملتان فحاصرها وفتحها عنوة، وأرسل فرقة عسكرية دخلت البيلمان وصالحه أهل سرست، وفتح الكيرج عنوة). أضحى وادي السند، بعد هذا

الانتشار الإسلامي، في قبضة المسلمين فانصرف محمد بن القاسم إلى تنظيم أمور البلاد المفتوحة والاستعداد للزحف نحو إمارة كتوج لكن أناه نعي الحجاج ثم نعي الوليد في

الجبهة البيزنطية

انتهج الوليد نهج والده في الضغط على الامبراطورية البيزنطية . والواقع أنه في الوقت الذي كان فيه الإمبراطور البيزنطي يخشى اتساع النشاط العسكري الإسلامي في البر والبحر ، كان الخليفة يعمل على تحقيق الهدف الذي ظل يراود الخلفاء الأمويين منذ تأسيس دولتهم ، ألا وهو فتح القسطنطية ، خاصة وأن الامكانات الإسلامية أضحت متاحة بعد تقوية الأسطول البحري ، وتنسيق التعاون بين القوتين البرية والبحرية ، في حين افتقد الجانب البيزنطي إلى الاستقرار ، وتدهورت قوتة العسكرية وساد الوضع الداخلي الصراع على العرش مما خلق مناخاً طيباً للعمليات الحربية(1) . وقاد حركة الجهاد الإسلامي ،على هذه الجبهة القائد الأموي مسلمة بن عبد الملك ، اخو الخليفة الوليد ، بمشاركة العباس بن الوليد ، وتمكن من فتح عدة حصون وهرقلة ، والحصون الخمسة التي تلي الحدود البيزنطية مع بلاد الشام ، وعمورية ودوريليوم وسبسطية وطرسوس وبرجمة (2) ، ووصلت إحدى فرقه إلى مدينة سكودري في عمق الأراضي البيزنطية (3) .

نتيجة لهذا النشاط العسكري الإسلامي المكثف ، حاول البيزنطيون إيقافه أو الحد من قوة اندفاعه ، فعمدوا إلى تقوية جبهة آسيا الصغرى ، فعمروا مدنها وشحنوها بجماعات من الأرمن ، وعينوا قادة جددا على ثغورها ، خاصه ثغر الأناضول، واهتموا اهتماماً خاصاً بتقوية القوى الحربية، وعملوا على توفير أسباب الدفاع عن العاصمه(1).وشهد عام (٩٦ هـ / ٧١٥ م) تطوراً جديداً في الأحداث. ففي دمشق تولى الخلافة سليمان بن عبد الملك خلفاً لأخية الوليد ، وفي بيزنطية اختير ثيودوسيوس الثالث إمبراطوراً. لكن أهداف كل من الدولتين لم تتغير، فتابع كل عاهل خطوات سلفة.

جـ ـ جبهة شمالي أفريقيا

لقد بلغ المد التوسيعي على هذه الجبهة ذروته في عهد الوليد بن عبد الملك أحد أكثر الخلفاء الأمويين تشجيعاً لهذا الاتجاه . وكان لديه من الظروف المساعدة مادفعه إلى اعطاء السياسة الخارجية اهتماماً خاصاً. ومن الطبيعي أن استقرار الوضع الداخلي أوجد المناخ الملائم لتحقيق منجزات عسكرية على عدة جبهات في وقت واحد، وكانت أعظم إنجازات تلك السياسة التوسعية، هي استكمال فتوح شمال أفريقيا، والفتح الكبير لإسبانيا. أوضحنا من قبل، جهود حسان بن نعمان في تطهير منطقة

المغرب من النفوذ البيزنطي، والقضاء على ثورة البربر الثانية. والواقع أنه لن يكد هذا القائد ينتهي من المشاكل الخارجية، ويتفرغ لمعالجة الشؤون الداخلية الإدارية لأمارته حتى تم استبدالة بقائد آخر هو موسى بن نصير، وذلك في عام (٨٥ هـ / ٧٠٤م) وإن كان تنفيذ المهمة قد تم في وقت متأخر من عهد عبد الملك، أو في مطلع عهد الوليد . وقد ارفق القائد الجديد أولادة الأربعة وهم مفطورون على التربية العسكرية (2). وقد بدأت بتعيينه المرحلة السابعة والأخيرة من مراحل فتوح شمالي أفريقيا.لم تكن مهمة موسى بن نصير على شيء من الصعوبة، فقد اهتم أو لا بتدعيم مركز القيروان العسكري، ثم راح يثبت دعائم النصر الذي حققه سلفه في المغربين الأدنى والأوسط.استهل أعماله في (أواخر عام ٨٥ هـ / وأوائل عام ٨٦ هـ/ ٧٠٤- ٧٠٥م) بفتح قلعة زغوان، وتقع في منطقة جبلية بين القيروان وتونس، ثم غزا صنهاجة وسجومة في شمالي المغرب الأقصى وفتح هذه الأخيرة(1)، وأرسل أولاده في كل اتجاه لتثبيت أقدام المسلمين في المناطق المفتوحة.

والواقع أن فتح سجومة كان أمراً على جانب كبير من الأهمية فهذه البلدة التي كانت في الغالب قاعدة لجزء كبير من قبيلة أوربا، قبيلة كسيلة، كانت في الوقت نفسه، مفتاح الطريق إلى سبتة وطنجة، التي فتحها المسلمون عقب ذلك مباشرة(2)، وجعلوها قاعدة ولاية جديدة سميت بولاية طنجة أو المغرب الأقصى.

واستكمل موسى بن نصير، بعد ذلك، اخضاع البلاد إلى الجنوب من جبال الأطلس، فسيطر على المغرب الأوسط سيطرة تامة وطارد المتمردين من البربر حتى إقليم السوس الأقصى في عمق المغرب. وقرر النصر الإسلامي مستقبل البربر الذين تحولوا إلى الإسلام، ودخلوا في الجيوش العربية، كجنود محاربين، وقُدّر لبعضهم أن يصبح أكثر حماسة للإسلام من العرب انفسهم، وهذا التحول الذي طرأ على وضعهم كانت آثار إيجابية في فتح الأندلس بعد ذلك لأن معظم قبائل البربر أخذت، بعد اعتناقها الإسلام، وتتوق الى الحرب والجهاد. وقد أدرك موسى بن نصير هذه النزعة فأستغلها بتوجيههم إلى الفتوحات الخارجية، ولم يكن أمامه في في هذه الحالة سوى عبور المضيق لتحقيق هذا الغرض.

لم تقتصر غزوات موسى بن نصيرعلى المناطق البرية في المغرب، وإنما قام بنشاط بحري استهدف الجزر القريبة من شاطئ المغرب لم يكن هدفها الاستقرار بقدر ما كانت الحملات استطلاعية والحصول على المغانم والأسلاب. إنما نتج عنها شلُّ حركة الأساطيل البيزنطية في البحر الأبيض المتوسط التي كانت تشكل خطراً مباشراً، وتهديداً مستمراً لوجود المسلمين في

أفريقيا. فغزا موسى في عام (٨٦ هـ / ٧٠٥م) جزيرة صقلية، وغنم غنائم كثيرة. كما غزا قائدة عياش بن أخيل سرقوسة، وغزا عبدالله بن مرة جزيرة سردينيا(1).